سَاعَة مَعَ كتاب الله[1]

بقلم أبي إقبال

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحابته ومن والاه.

وبعد فهذه كلمات يراد لها أن تأخذ مكانها في قلوب الإخوة الصادقين وعياً وشعوراً وإدراكاً، في إطار أداء لحق الله فيما افترض على عباده من النصيحة والعمل في مرضاته، وانهاج السبيل التي تؤدي إلى تحقيق العبودية الخالصة لله على هذه الأرض التي أكرم الله فيها الإنسان، فحمَّله أمانة الخلافة فيها، وجعل منه أهلاً لحمل رسالة الخير والحق والفلاح، كيما تتواكب كل الطاقات التي وهبها الله له على طريق العمل الصادق الذي به يكون العبد عبداً بيعداً عن كل وثنية، مجافياً لكل ما يتنافى مع حقيقة الشكر لله المنعم المتفضل الذي قلده أمانة الخلافة، واختاره من بين مخلوقاته لها.

ولن يكون يسيراً أن نقتحم الصعاب، لنقوم بعملية تصنيف لأولئك الأفراد من البشر من منهم سلمت له أقواله وأفعاله وتصرفاته، فكان في موقف الكرامة ومن منهم ضل السبيل، واتخذ الحجب والأستارت دون فطرته، وأقام بينه وبين الحق حواجز من الشهوات والضلالات، فكان أسير أعراض خطرية من الانحراف عن مقتضيات الفطرة أولاً، وعن نداءات أدلاء السعادة ثانياً.

(١) نشرت سنة ١٣٨٨هـ.

لقد كنا نعتقد وما نزال أن الدواء الوحيد لما يعانية الإنسان من مرض التجافي مع الفطرة، إنما هو اصلاح القلب الذي بيده قياد تصرفات الجسم والأعضاء، لأن هذا القلب إذا صلح صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله كما بيَّن الصادق المصدوق -عليه الصلاة والسلام-، فالتصرفات والتحرات، إنما يكون يمزان ضبطها الحقيق نابعاً من القلب إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وإصلاح القلب هذا لابد له من قناعة مبدئية بضرورته، وأنه أمر حتمي لازم لسعادة صاحبه في الدنيا والآخرة، فإذا توافرت هذه القناعة كانت الخطوة التالية التي تتلوها خطوات على صعيد تهذيب النفس وتزكيتها كيما تصفو أعمال القلوب من الأكدار.

وإذ صاحب تلك الخطوات التوفيق تفجرت ينابيع الحكمة وأضاء الطريق، وكان خير ما يزين هذا الإنسان دين تصان حدوده وشريعة تحفظ معالمها. وعطاء رلهي لا يَنْفَد ﴿ **كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً** ﴾.

وفي هذه الطريق يحسن أن نذكِّر بالقرآن الذي جعله الله شفاء ورحمة للمؤمنين.

أن التزاماً يلتزمه الإنسان من جلسة هادئة مع كتاب الله كل يوم في تلاوة لبعض الآيات الكريمة ومدارستها والتدبر لمعانيها -خصوصاً في رمضان-، والتصور الصادق للصورة التي أحاطت بها يوم نزلت على رسول الله

صلوات الله وسلامه عليه، كيف نزل بها جبريل، كيف تلقاها رسول الله، كيفم كانت حاله؟ كيف كان شعوره، على أي صفة كان قلبه، كيف كان يستشعر هذا الفيض الالهي من السماء، كيف كان ينظر ببصيرته إلى هذا القرآن الذي كان نزوله مظهراً من مظاهر النعمة ووجها من أوجه الاصطفاء أولاً، وأمانة ثقيلة يراد تبليغها بدقة وشمول ثانياً.

ثم كيف كانت أصحاب النبي صوات الله وسلامه عليه وهم يشهدون متنزل الوحي، كيف كان تهيؤهم لتلقي هذا الوحي عن رسول الله، كيف كان ادراكهم لابعاد الآيات التي تخطبهم مرغبة مرهبة، منذرة مبشرة.

كيف كان استسلامهم لكل ما يمكن أن تأتي به الآيات من تغيير جذري يأتي على البقية الباقية لديهم من موروثات الجاهلية؛ فالآيات تخاطب العقل، وتخاطب القلب وتحرك الشعور، وتثير مقومات الأدراك، وتحمل في كثير من الأحيان سياط التأديب تؤدب به الظالم، والروح والريحان تكم به من اسقتام على الطريقة ووقف عند حدود الله.

أن جلسة هادئة كهذه فيها شيء من التلاوة الواعية والمدارسة التقية النقية والتدبر المدرك، والاحاطة بالصورة التي تخدم الحقيقة، تلك الصورة التي تمر بالمسلم ذكراً كان أو أنثى على ساعات من أيام الليل والنهار لصاحب الرسالة صلوات الله عليه، وتمر به على ساعات من أيام الليل والنهار للذين كانوا معه كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه. وتمر به على ساعات وقف فيها الزمن خاشعاً خاضعاً يتلمس الرضا وينتظر بفارغ

الصر كلمة تفتر عنها شفتا محمد بن عبدالله الذي كان -وهو في مكة- يمشي على الشوك ليغرش عقيدة التوحيد، ويستأصل جذور الجاهلية والشرك، وكان -وهو في المدينة- يقيم للإنسانية صرحاً تتفيأ ظلاله في أقاصي الأرض على مدى القرون والأجيال.

إن ساعة كهذه جديرة أن تفعل الكثير، جديرة ورب السماء والأرض أن تجعل منك خلقاً آخر تروح وتغدو على حال غير التي كنت عليها يوم كان القلب تحجزه عن الحقيقة شتى الحدود ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴾.

وأذكر أيها الأخ المؤمن وأنت تقرأ أنك تناجي صاحب الكلام الذي تقرؤه فليس الأمر عبثاً من عبث ولا تمضية لساعة من سعات الفرغ ولكنه مناجاة رب العالمين.

وأذكر أن الأمانة على قدر الوعي والإدراك، وأنك تقرأ كلاماً ما تغير منه حرف ولا تبدلت فيه كلمة، إنك تقرؤه غضاً طرياً كما أنزل على قل رسولك النبي الأمي -صلى الله عليه وسلم- الذي قال له الملك على لسان رب العالمين ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ** ﴾.

أذكر هذا كله وأذكر معه أنك حين تقرأ لا تقرأ شفاء القل وحسب، ولكنك تقرأ غذاء العقل، وسقيا النفس.. بل تقرأ منهج حياة وطريق سعادة، ويمتد بصرك بالقرآن إلى القرون الماضية والأمم الخالية، وتمتد أمامك الصورة حتى تصل إلى أحوال تلك الأمم مع أنبيائها، وكيف كان صبر الأنبياء

وكيف جرى الصراع بين الحق والباطل ولمن كانت الغلبة في خاتمة المطاف. الأمر الذي يجعل للجماعة القسط الأوفر من بناء الفرد، فليس اتصالك بالله عن طريق القرآن عاملاً في تكوينك لتكون في إطار انعزال وتقوقع على نفسك، ولكنه إعداد لك لبنة يجب أن يتكون منها صرح البناء لتأخذ مكانها الطبيعي اللائق. وأنه لامتحان قاس رهيب لا يفوز به إلا أهل الرضا، فلا بد أن تمتحن مقدار تأثرك بالقرآن ذاكراً مقالة الحسن البصري -رحمه الله- «ما جالس القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقص، إقرؤوا إن شئتم ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا**﴾».

وسلم- «إنما الأعمال بالنيات». وقدمه على حديث الوحي، ذلك لأن العبادة والإخلاص فيها هو الأساس الذي يجب أن يكون قاعدة العمل عند المؤمن.

وهذا الاتساق الذي نتحدث عنه يجعلنا نقف على شيء من مدلولات تحريم الصيام في أول يوم من أيام عيد الفطر، فوجوب الصيام في رضمان شرعة، وتحريم الصيام يوم عيد الفطر شرعة. أن الذي أوجب هناك هو الذي أوجب هنا، المصدر واحد، والشريعة واحدة، ولذلك قرن النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر الله تعالى بما يكون من مظاهر الفطر فقال: «أيام العيد أيام أكل وشرب وذكر الله».

وفي شأن صدقة الفطر أمر باغناء الفقراء في يوم العيد فقال: «اغنوهم من المسألة في هذا اليوم».

وهكذا يريد الإسلام من أفراده أن يكونوا على صحو دائم، وعلى مراقبة تامة لله عز وجل، وما كان في فطر وما كان في صوم، ما كان في سراء وما كان في ضراء، وما دام المؤمن يتقلب دائماً في فضل الله عز وجل وأحسانه، فهو إذا فرح فرح بفضل الله، وإذا غضب غضب لله، مسرّته إنما تكون بحسناته وما قدّم من عمل دائم مخلص، ومساءته إنما تكون بما تجترح يده من مخالفة لا وأمر الله عز وجل، أو وقوع في شيء من منهايته. لذا فهو يحرص كل الحرص على أن لا يراه الله حيث نهاه، ولا يفقده حيث أمره.

«عجبا لأمر المؤمن أن أمره كله له خير، أن أصابته سراء شكر فكان ذلك خيراً له، وأن أصابته ضراء صبر فكان ذلك خيراً له».

وما أحسبنا نبعد النجعة أن قلنا: أن هذا من خصائص هذه الأمة.. التي تعبد الله تعالى صياماً وصلاة، وتعبده زكاة وحجاً، وجهاداً، وتبعده فرحاً وطمأنينة واستمتاعاً بنعمه وطيباته، ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾.

وذلك الذي نقوله عن هذه الخاصية العظيمة هو فارق ما بينها وبين أولئك الذين يجعلون من أيام العيد أيام لهو لا تفارقه المعصية، وعبث يقوم على المخالفات، واستهتار لا يقف عند حد من حدود الدين أو الخلق.

إننا ونحن نقرر هذه الحقيقة، نستشعر ما من الله به على الجماعة المسلمة، حين رسم لها معالم الخير، وسلك بها طريق الجادّة، وجعل منقلبها ومثواها في مرضاته، وعمل كل ما من شأنه أن يعود على الفرد والجماعة، بل والأمة بالخير العميم.

وذلك في واقع الأمر يتناسب كل التناسب مع الزانة التي حملها الإنسان، والرسالة التي أعدت لها هذه الأمة يوم تأذن الله فخاطب المؤمنين وحياً إلى نبيه محمد بن عبدالله ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾.

ولعل في ذلك ما يهدي إلى ما كان من حرص النبي -عليه السلام- على خروج المسلمين إلى صلاة العيد، حتى النساء اللاتي يقعدهن العذر عن الصلاة. فقد ثبت في الصحيح عن أم عطية -رضي الله عنها- قالت: «أمرنا رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- أن نخرجهن في الفطر والأضحى، العواتق والحيَّض وذوات الخذور. فأما الحيض فيعتزلن الصلاة

-وفي لفظ (المصلى) ويشهدن الخير ودعوة المسلمين، قلت: يا رسول الله، إحدانا لا يكون لها جلباب، قال: لتلبسها اختها من جلبابها».

والآن: هل علي من بأس لو خطوت خطوة أخرى، لا نظر إلى شرعة العيد من وجه آخر -وما أكثر حكم الله فيما يشرع لعباده-؟؟ إننا ونحن نتحدث عن العيد لبنة كريمة في كيان المسلم من حيث كونه في أعقاب العبادة، وإن المؤمن يفرح بفضل الله عز وجل فيما وفقه للقيام بما افترض عليه، وأداء حقه فيما أوجب.

إننا ونحن نتحدث عن العيد من هذا الوجه لا ننسى ما تتسم به عبادة الصوم التي سبقت العيد، من وحدة الشعور بين أبناء الأمة قاطبة، فالكل -إلا من حرم- يمسكون حيث يجب الإمساك، ويفطرون حيث يشرع الأفطار، على تنائي ديارهم وتباعد أمصارهم، واختلاف السنتهم والوانهم امتثالاً لأمر الله ﴿**فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ**﴾ وكلمة ﴿**مِنكُمُ**﴾ تحمل الخطاب لجميع المكلفين في الأمة دون تمييز أو تفريق، والحكم باق حتى يرث الله الأرض ومن عليها. وعدّة الشهر الذي يصومون، منوطة بما دلّ عليه قول الرسول -عليه الصلاة والسلام-: «صوموا لرؤيته -يعني هلال رمضان- وافطروا لرؤيته، يعني هلال شعبان».

وحدة الشعور هذه في حال الصيام، ينبغي أن تكون هي نفسها وحدة -- -- أيام الفطر.

ولعمري أن هذه الوحدة الشعورية التي تبدو هنا سمة من سمات التشريع وثمرة من ثمراته بآن واحد. يجب أن تمتد لتعلم عملها في حياة الأمة،

سلاحاً ما ضياً في قضاياها الكبرى، كفاء ما تلقيه الأيام على طريقها من معضلات وعقبات.

لقد خاض المسلمون في الماضي معركة الفرقان التي أرست للإنسانية قواعد كرامتها وهم صائمون، وخاضوا معركة الفتح حيث حرروا بيت الله والأرض من حوله من أدران الوثنية، ومكثوا لراية التوحيد أن ترتفع وهم صائمون.

وكم كان في ذلك من انقاذ للمستضعفين، ونجدة لأولئك الذي غلبهم أهل الشركة على أمرهم، حتى باتت معركة الفرقان (بدر) وغزوة الفتح وما كان بينهما أو لحقهما، أصدق عنوان على طريق الإنسانية لتحقيق كرامة الإنسان، وتحريره من عبودة العباد، وظلم الطغاة.

وكان من ذلك حراسة للمبدأ الذي أعلنه القرآن ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾.

فهلا تكون وحدة الشعور هذه على صعيد الأمة، حلقة تصل ما أنقطع وترد ما ضاع، وتذكي ما خبا من نار العزيمة وحب الموت في سبيل الله! إنهما شعبتان لابد من اعطاء كل منهما قدرها في القول والعمل. أن نذكر اقتران العبادة بفضل الله، وأن نذكر اقتران أعز معاركنا بالصيام قبل العيد إلى قمة لا ينالها إلا أولئك الفتية الذي آمنوا بربهم وزادهم هدى، وكان على وعي لهذا التكامل المطلق في شريعة السماء.

أترانا نذكر ونحن في أيام العيد، أخوانا لنا يقعد لهم العدو كلَّ مرصد، ويسومهم ألوان العسف والتنكيل، أترانا نذكر أيَّ هدايا يقدمها العود الماكر كل حين لأولئك الذين صاموا تحت سلطانه، وأفطروا تحت قهره وغدره، يأك لخيراتهم ويصليهم سوء العذاب، يرتع على أرضهم، ويسرح ويمرح في ديارهم ومرابع صباهم، ويهين في شهر القرآن قرآنهم، ويحول في شهر العبادة بينهم وبين عبادتهم ومساجدهم، تلك المساجد التي ينالها ما ينالها من رجس الكفر ودنس الكافرين الصهاينة صباح مساء.

أرانا عندما ننظر إلى الأرض هنا، نذكر الأرض هناك، وعندما ندخل مساجدنا هنا، نرنو إلى الأقصى والخليل وسائر مساجدنا هناك، أترانا نقف عند قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم» نصيخ السمع ونفتح القلوب، ونتجافى عن الحطام وحب الحياة، لندرك أن الشعور الصادق بوحدة الأمة في أفراحها وأتراحها وما ينتظرها من مصير، هو آية الإيمان، وصدق الدينونة للخالق القادر القاهر!! والعكس بالعكس!!

إلا إن الإيمان الذي حرك الدم ليعمل عمله عبر تاريخنا الطويل، قادر أن يقفنا اليوم حيث تقضي مصلحة الأمة وأخلاق الرجال.

ولن يكون العيد عيداً بمعناه الحقيقي، حتى نكون في مرضاة الله تعالى، تحرياً لارضنا، وانقاذاً لمقدساتنا، وأخذاً بيد أخواننا المغلوبين على أمرهم هناك.

وعلى هذه الأمة أن تذكر دائماً، أن تقوى الله التي جعلت غاية الصيام،

كما تطلب في الفرد اخلاصاً وصلة بالله عز وجل، ووقوفاً عند الذي شرع وأحكم، كذلك ينبغي أن تتحقق على صعيد الأمة، وحدة شعور، واحساساً بالمسؤولية، ووعياً صادقاً للذي يدور على أرضنا، وفيما حولنا.

وأن نذكر كذلك، أن العيد ليس فرحة فرد وكفى، ولكنه فرحة الجماعة فيما وراء ذلك، والفرد المبتور عن أمته، بشعوره وأحساسه بالمسؤولية، فرد غرب عن فطرة الإسلام وكما شريعة الإسلام.

ألا وإن الأمة مدعوة اليوم أكثر من أي وقت مضى، أن تفتح البصيرة على الذي يرى واضحاً من الارتباط بين العبادة والفرح بفضل الله، وبين ذلك جميعاً مع وحدة الأمة في صادق الشعور، والأحساس بالأخوة ووحدة المنقلب والمصير.

صحيح أنها طريق شائكة محفوفة بالمتاعب، حافلة بالمعوقات، ولكنها هي وحدها طريق الكرامة وكسب مرضاة الله عز وجل، فإذا تذكر المسلم أن الله أكبر من كل كبير، وأن العقبة مهما كانت كؤودا سوداء فالاستعانة بالله مع الأعداد الصحيح تذللها وتجعلها كلمة للتاريخ، استطاع أن يفعل الكثير وأن يحقق الكثير.

هذا من حكم شرعة التكبير في العيد، الذي طلب حتى في صلاته وخطبته حيث يكبر الخطيب عند كثير من الأئمة، تسعا في الخطبة الأولى وسبعاً في الخطبة الثانية، وفي الصلاة يكبر المصلي سبعا في الركعة الأولى وخمسا في الركعة الثانية. هذه الحكمة، التي ترفع المسلم عن أوضار الطين، وتأخذ بيده إلى القمة مخلفاً وراءه أولئك الذين تستعبدهم غريزة حب الحياة، أو شهوة الدنيا، وزينة المال والولد.

ففي ساعات الفرح حيث عيد الفطر أو عيد الأضحى، تجد التأكيد على هذه الشرعة العظيمة، حمداً لله وشكراً على ما كان من الهداية ونعمة التوفيق ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، وتنزيها لله عما يفتري المفترون ويتأله المتألهون. وتذكراً للمسلم بأن لا تلهيه الفرحة عن الواجب وأنه يجب أن يكون في مرضاة الله على كل حال. فإذا تمكَّنت عظمة الله من قلبه كان قادراً مستعلياً على الحطام والمعوقات، سواء أكانت من نفسه، أم كانت من العدو. وما أكثر المعوقات من داخل النفس حيث حب الدنيا والحرص على البقاء، وما أكثرها من العدو حيث القوة الظاهرة والحرب النفسية، وإدخال الوهم واليأس إلى النفوس كالذي نرى في مساعدة الاستعمار للصهاينة من مختلف الأسلحة المادية وغيرها.

يا أيام العيد.. نريدك أياما لنا جمعياً، لاهلينا، لاخواننا، على أرضنا الفسيحة الطاهرة هنا وهناك.. ويا فرحة العيد.. نريدك على قسمات أطفالنا جميعاً.. على وجوه السالكين دروب الخير هازئين بتآمر اللؤماء الأقوياء.

يا ساعات الصباح، ونحن نوفع أصواتنا بالتكبير، تريدك ساعات تمسح عن أرضنا دنس يهود.. وعن مقدساتنا ما كان من رجس يهود..

اللهم إنا نسألك وأنت الذي قلت بعد آيات الصيام ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾، ساعة من ساعات بدر والفتح، ويماً من أيام القادسية واليرموك، اللهم أن أهل الباطل قد تظاهروا على حقنا، فاشدد بقوتك

أزرنا، وكلِّل هامنا برايات نصرك، اللهم أنزل بهؤلاء الأعداء غضبك، وأحلل عليهم عذابك ونقمتك، اللهم رب السماء وما أظلت، الأرض وما أقلت، أنزل السكينة في قلوبنا، وأيدنا بما أيدت به جندك الصابرين الصادقين، حتى نفوز برضاك، وحتى تكون الغلبة لنا في يوم لابد واقع بإذن الله. ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير.